بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يتناول هذا الكتاب موضوع « علم النفس اللغوى » ، وهو - فى الواقع - من أحدث موضوعات البحث العلمى ، التى نحاول أن نقدمها للقارىء العربى ، موضحين كيف أنه فى أوائل الخمسينات قد ظهر اتجاه جعل علم النفس يختلط بعلم اللغة ، الأمر الذى من شأنه أن وجه علماء النفس اهتماماتهم نحو دراسة اللغة والسلوك اللغوى .

وفى الواقع ، اللغة من أهم وسائل التعبير والاتصال الإنسانى بين الأفراد والجماعات . إذ هى ترجمات لما يدور فى الذهن من أفكار ، والوسيلة الاجتماعية التى يمكن بها أن تخرج الفكرة الذهنية غير الملموسة إلى حيز الوجود والتداول .

ومن هنا ، يمكن للسامع أن يحكم على هذه الأفكار حكماً يقوم على أسس موضوعية .

ولما كان اللفظ لا يكتسب قيمته السلوكية ، إلا إذا اكتسب المعنى والدلالة بالنسبة إلى الفرد ، كان من الضرورى أن تؤكد العملية التربوية على إكساب التلاميذ معانى الألفاظ ، مع ربطها بمواقف بيئية ملموسة بقدر الإمكان .

ومن سمات هذا العصر الحضارى ، ظهور مفاهيم وقضايا جديدة ، الأمر الذى ترتب عليه وجوب مراعاة عملية تكوين معنى اللفظ عند التلاميذ بطريقة تدريجية - كأى عملية نمو أخرى - إذ أن هذه العملية ، فى واقع الأمر ، تتطلب تكوين أكثر من علاقة فى الموقف التعلمى المعين . فهى تتضمن تكوين علاقة بين الشىء وبين اللفظ الذى يدل على هذا الشىء ؛ كما تتضمن ممارسة الفرد للفظ المعين فى مواقف عديدة حتى تكتسب الخبرة وتتعلم .

وبالتالى ، يمكن للفظ استدعاء أنواع الاستجابات المرتبطة بالشىء نفسه . ذلك لأن الألفاظ ما هى إلا رموز للأشياء ، تدل عليها وتمثلها أصدق تمثيل . ومن حيث أنها كذلك فهى قادرة على أن تقوم مقام الشىء ، كمثير ، أثناء عدم وجوده .

ومن هنا ، كان من الضرورى انتقاء المعانى الواضحة القريبة إلى ذهن التلميذ ، حتى لا يلتبس عليه فهمها ، وحتى لا تتكون المفاهيم الخاطئة بالنسبة إلى الألفاظ المختلفة .

والحقيقة الهامة التى نلاحظها فى حياتنا اليومية ، أن اللفظ الواحد بالرغم من أنه يحمل معنى إشارياً أو قاموسياً واحداً لدى مختلف الأفراد فى مختلف البيئات ؛ إلا أننا نجد اختلافات شاسعة لدى هؤلاء الأفراد بين ما يشير إليه هذا اللفظ أو ذاك فى الواقع الفعلى ؛

وبين ما يمكن أن يعبروا به عن انطباعاتهم إزاء اللفظ المعين .

ومن هنا يمكن القول بأن الألفاظ تحمل مضامين بالنسبة إلى الأفراد ، تختلف وتتباين تبعاً لنوع الخبرة المكتسبة .

وعلى ذلك فالملاحظ في حياتنا اليومية أن كلاً منا يمكن أن يعبر عن اللفظ الواحد بمعنى معين ، قد يختلف كثيراً أو قليلاً عما يمكن أن يعبر به الفرد الآخر .

وهذا هو ما يطلق عليه المعنى النفسي أو المعنى السيمانتي ، أي دلالة الألفاظ .

وفي حقيقة الأمر ، أن أحاديث الأفراد لا تعبر عن المعاني الإشارية (الحرفية) للفظ فحسب ، وإنما تنطلق من الأفواه تلك المعاني النفسية أو السيمانتية ، لتعكس خبرات سابقة مر بها الفرد إزاء هذا اللفظ أو ذاك في مواقف سلوكية متباينة .

ومن هنا ، جاز لنا القول ، بأن أحاديث الأفراد بالرغم من أنها قد تتناول موضوعاً واحداً ؛ إلا أن من يسمعها ليجد تباينات شاسعة في التعبير والمقصد .

وهذه هي الفكرة الرئيسية التي يتناولها هذا المؤلف ، من حيث أنواع المعنى « المعنى الإشاري والمعنى النفسي» ؛ وكيف أن المعنى النفسي أو السيمانتي يختلف ويتباين لدى الأفراد ، ويطلق على ذلك مصطلح « التمايز السيمانتي Semantic Differentialtion » .

كما يمكن قياس هذه التمايزات والاختلافات عند الأفراد بالنسبة إلى الألفاظ بوسيلة قياس موضوعية يطلق عليها « التمايز السيمانتي Semantic Differential » تقيس استجابات المعنى النفسي عند الأفراد بالنسبة إلى مفاهيم وقضايا مختلفة ، مع إظهار الفروق والتباينات الدقيقة لهذه الاستجابات .

وهكذا ، نجد أن التعبير اللغوي لدى الإنسانية جمعاء ، لا يقوم على أسس منطقية فحسب ؛ وإنما يتضمن مشاعر وأحاسيس معينة ، تعكس صورة صادقة لما مر به الفرد من خبرات متباينة إزاء تلك الألفاظ .

ويمكن لنا أن نلمس ذلك بوضوح في قصائد الشعراء ، وقصص الكتاب . فمثلاً : نجد أن القصة الواحدة ما هي إلا سجل لأحداث معينة ، ونتاج ممتد لما مر به صاحبها من خبرات في ماضيه ، وما يمر به في حاضره ، وما سوف يمر به في مستقبله حيث تؤدي عملية التخيل وظيفتها في هذه الحالة .

ومن هنا تتشكل القصة فى تراكيب لغوية معينة ، تكمن وراءها دلالات شتى ، لا تشير إلى الأشياء صراحة ، وإنما تحمل مضامين ، يحتاج تفسيرها إلى تفهم وتأمل دقيق ممن يقرأها .

وهكذا ، فقارىء الشعر ، وقارىء القصة الأدبية ، لا تقوم قراءته - فى حقيقة الأمر - على مجرد ما تتضمنه القصيدة أو القصة من ألفاظ تشير إلى أشياء وموضوعات معينة ؛ وإنما تقوم - أساساً - على موقف إيصالى انفعالى بين من يكتب ومن يقرأ ، لكل ما تتضمنه العبارات والتراكيب اللغوية من معانى نفسية معينة تتحدد تبعا لخبرات القارىء إزاءها ، حيث يتسنى له أن يضفى على القصة معنى ذاتيا خاصاً ، قد يختلف عن غيره من القراء .

وفى هذه الحالة ، يمكن القول بأن القارىء يتحرر من منطقية الألفاظ ، ويعيش فى بعد تقييمى انفعالى معين يفسر به هذه الألفاظ بطريقة أو بأخرى .

وكتاب الله عز وجل هو الركيزة الأساسية التى نرتكز عليها ، والمصدر الرئيسى الذى نرجع إليه من حيث ما يتضمن : التأمل فى النفس الإنسانية وما تنطوى عليه من أسرار ...

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ..

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ..

فوصف النفس الإنسانية فى مختلف حالاتها ، ورد فى كتاب الله عز وجل ؛ من حيث أنها خيرة وشريرة ، سوية وشاذة ، صاعدة وهابطة ، مقبلة ومعرضة ...

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ..

« إن النفس لأمارة بالسوء » ..

« وإنه لحب الخير لشديد » ..

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » ..

الله سبحانه وتعالى خالق النفس الإنسانية ، عليم بأسرارها وخفاياها :

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ..

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه » ..

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا » ..

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى . إنه لفرح فخور » ..

هكذا تبين لنا آيات القرآن الكريم ما فى النفس الإنسانية من تباينات ، وحالات ... مختلفة فحواها ومضامينها لدى الأفراد، ولدى الفرد المعين تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال ... والتى تؤثر بدورها تأثيرا فعالاً فى حالات تلك النفس وما تكون عليه ، وما يمكن أن تتغير إليه .

فالكمال والثبات لله وحـده عز وجل . بينما النفس الإنسانية متقلبة متغيرة من حال إلى حال ، تبعاً للمثيرات المختلفة والظروف البيئية المحيطة .

ولما كان العقل الإنسانى يقوم بترجمة الفكر الكامنة فى صور لفظية ، ينطق بها اللسان معبراً عن مكنونات تلك النفس الإنسانية وما تحويه من أسرار .. كان للغة سواء المنطوقة منها أم المكتوبة ، ذلك الارتباط الوثيق بالنفس الإنسانية ، تكشف عما بداخلها من معان ودلالات تجاه الموضوعات والأشياء والأشخاص ..

ومن هنا تعتبر اللغة المرآة الصادقة التى تعكس صورة جلية واضحة عن محتويات تلك النفس الإنسانية . وبالتالى فهى المقياس الأدق لتلك الاستجابات النفسية الداخلية التى لا يمكن ملاحظتها ملاحظة مباشرة ، إلا بوساطة هذا السلوك اللغوى الظاهر ـ فهو المعبر الأول والمقياس الدقيق لاستجاباتنا الداخلية الكامنة . والتى يمكن عن طريقه الوقوف على مثيراتنا غير الظاهرة داخل تلك النفس الإنسانية .

وما دفعنى – أساسا – للخوض فى هذا المجال ، مجال علم النفس اللغوى ، كتاب الله عز وجل ، فالقـرآن الكريم وهو فى قمة العربية فصاحة وبلاغة : لما له من خواص التراكيب اللغوية ، ودقة الأساليب ، وعمق المعانى ... ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع . وتختلف المعانى باختلاف الإعراب أى علم النحو ، وعلم البنية من حيث التصريف والاشتقاق .

إن القرآن الكريم يشتمل على ما هو أبعد وأعمق مما يدل ظاهر لفظه على معناه ، حيث تناجى ما وراء ألفاظه وتراكيبه اللغوية من معان ، جوانب النفس الإنسانية فتشعر بالإمتاع والارتياح .

ومن هنا كان المعنى اللغوى للفظ ؛ والمعنى الضمنى للفظ . الأول معنى مباشر ، والثانى معنى يخاطب النفس والعاطفة . فالنظم القرآنى فى تراكيبه اللغوية مزيج من اللغة – النحوية

واللغة الانفعالية من حيث رموزها وضوابطها وأشكالها ، ومن حيث مضامينها ودلالاتها النفسية بالنسبة إلى القارىء والسامع

إنه مما لا شك فيه ، أننا نلاحظ أن بعض الأفراد تستخدم اللغة العربية الفصحى بطلاقة ويسر ؛ بينما البعض الآخر يستخدمها بلعثمة وتعسر ..

فالنوع الأول من الأفراد ، يتميز بالدراية والمعرفة والتسلسل المنطقي في عرض أفكاره وتنظيمها .. بينما النوع الثاني من الأفراد تظهر في عباراته اللغوية الفجوات وما فيها من عدم ارتباط وتناسق بين الفكر المعروضة .. من حيث ما قد يصل إليه السامع أو القارىء من فكر متناثرة ، لا مضمون يربطها وينسقها في وحدة لغوية واضحة .

إن هذا الاستخدام اللغوي ما هو - في الواقع - إلا استجابة للعادات اللفظية التي اكتسبت من البيئة والثقافة المحيطة بشكل أو بآخر .. وبمدى تأثر هؤلاء الأفراد بها وبمدى رسوخها في أذهانهم - حيث ينطلق اللسان معبراً عما في الأذهان من فكر ، مبينا المقصود في قوالب لفظية منظومة ومصنفة تجمعها علاقات كالتشابه والتضاد والترادف وغير ذلك . . .

ومما لا شك فيه أننا نجد بعض الأفراد يمكنها استخدام المفاهيم الابتكارية اللغوية سواء في أحاديثها أم في كتاباتها .. هذا السلوك الابتكاري في اللغة يجعل صاحبه يحاول تكوين تصور ذهني لحل المشكلة في بناء جديد ومكونات جديدة تضم عناصر الخبرة السابقة والخبرة الإدراكية الحالية تؤدي إلى صوغ جديد وتكوين وإضافة جديدة للموضوعات والأشياء في كل جديد لم يسبق أن مر به الفرد في خبرته .

وفي الواقع ، أن الأفراد لا يتكلمون بطريقة واحدة حتى في حالة انتمائهم إلى وسط اجتماعي واحد، إذ نجد فروقا واضحة في كيفية استجاباتهم للمواقف المتشابهة ، وفي حصيلتهم من المفردات اللغوية ونوعيتها .. وفي درجة تعبيرهم سواء أكان ذلك بالحديث أم بالكتابة ..

والطلاقة اللفظية المعبر بها وما تحمله من معان وفكر لها قيمتها ..

من كل ذلك يمكن أن يستدل على ذكاء المعبر أو الكاتب في كيفية استخدامه للغة والتعامل بها مع غيره من الأفراد ..

وهكذا ، يوجد ارتباط وثيق بين علم اللغة وعلم النفس ، فعلم النفس يعنى بدراسة السلوك

الإنسانى عامة ، ودراسة السلوك اللغوى يعتبر حلقة اتصال بين علم اللغة وعلم النفس .

ومن خلال دراساتى فى هذا المجال- مجال علم النفس اللغوى - والتى تهم المربى والمعلم ، من حيث ما تفسره من جوانب نفسية لغوية تفيد كل من يقوم بإعداد وتوجيه الفرد بصفة عامة .. كان موضوع هذا المؤلف ..

والله أسأل أن يعين الدارسين والباحثين فى هذا الميدان ، وأن يكونَ منارا لارتياد آفاق جديدة فى المعنى ودلالات الألفاظ ..

وعلى الله قصد السبيل ..

نوال محمد عطية

القاهرة فى : ١٤١٤ هـ

١٩٩٤ م